تطور تنظيم داعش والحاجة لقواعد اشتباك جديدة

عبد الله الموسى

أمام حشد كبير من المصلين في الجامع النوري الكبير في الموصل في 29 يونيو/حزيران 2014، أعلن أبو بكر البغدادي تأسيسي تنظيم الدولة الإسلامية (داعش)، وأعلن نفسه خليفة للمسلمين. منذ ذلك الوقت، استطاع التنظيم السيطرة على مناطق واسعة في العراق وسوريا، حتى أصبح خطراً استدعى قيام تحالف دولي، مكون من حوالي ثمانين دولة واتحاد، لمحاربته والقضاء عليه.

في النهاية، خسر التنظيم مساحات كبيرة كان يسيطر عليها، وباتت الهزيمة العسكرية وشيكة. الآن وبعد مرور خمس سنوات على بداية المعارك، ما يزال التنظيم موجوداً. في 28 أبريل/نيسان، عاد البغدادي للظهور في فيديو مصور، في مكان غير معلوم، سعياً للانتقام لخسارته الأرض، تعرض تنظيم داعش خلال السنوات الماضية لهزائم في العديد من المعارك الطاحنة التي خاضها، ولكنه يعيد التجمع مرة أخرى، والمجتمع الدولي في حاجة للاعتراف بهذا الأمر، وتطوير استراتيجيته.

معركة الباغوز.. حيث فرض التنظيم الزمان والمكان

تمكن تنظيم داعش، بحكم الخبرة العسكرية والإدارية لمقاتليه الأجانب، من إعادة تنظيم صفوفه سريعاً، من أجل التحضير للمواجهة الرئيسية مع الولايات المتحدة وقوات التحالف الدولي، لكن ذلك لم يكن كافياً لمواجهة المعركة الرئيسية مع قوات سوريا الديمقراطية (قسد) والتحالف الدولي. وسرعان ما انكمشت حدود دولة البغدادي، واقتصرت عل اقل من عشر بلدات في اقصى الشرق السوري.

خلال شهري أكتوبر/تشرين الأول ونوفمبر/تشرين الثاني، قاوم التنظيم بشراسة في منطقتي هجين والسوسة، رغم أنها منطقة تفتقد للتضاريس التي تساعد على الدفاع عنها. يبدو أن تنظيم داعش اختار هذه المنطقة، هجين، كجزء من استراتيجية أكبر لاستدراج قوات قسد، وكسب الوقت لتجهيز ساحة المعركة التي سيفرضها هو لاحقاً، وهي الباغوز، تلك البلدة الملاصقة للحدود العراقية ونهر الفرات، ذات التلة الوحيدة في المنطقة المعروفة باسم شفتة الباغوز.

استعد التنظيم جيداً لهذه المعركة، حيث قام بحفر أنفاق وخنادق، وقام بزراعة وألغام تحيط المكان بكامله. اتّخذ التنظيم من عشرات آلاف المدنيين من سوريين وعائلات المهاجرين الأجانب، دروعاً بشرية من جهة، واستخدامهم كأداة لكسب الوقت الذي يريده، عبر إيقاف المعارك بحجة تأمين خروج آمن لهم من جهة أخرى. كما اعتمد التنظيم على أن المقاتلين الأجانب رفضت دولهم استعادتهم، وبذلك لن يسلّموا أنفسهم وسيقاتلون حتى الموت، بحكم أن مصيرهم محدد بخيارين فقط، إما سجون العراق، أو أن تسلّمهم قوات قسد للنظام في حال انسحبت الولايات المتحدة.

انتقى التنظيم بلدة الباغوز كونها تحوي أساساً على الكثير من الكهوف الطبيعية، معظمها في التلة (الشفتة)، في حين حفر التنظيم خندقاً مغطّى نحو الحدود العراقية التي لا تبعد أكثر من 700 متر، وجهّز عدداً من مستودعات الذخيرة وورشاً لتصنيع العربات المفخخة.

هذه الخطة لم تكن بهدف الحفاظ على أو استعادة بقعة جغرافيا للخلافة كما كان التنظيم يفعل في بدايات صعوده، وإنما تحقيق انتصاراً يصُوغه لاحقاً بإصدارات تحفيزية للجيل القادم من عناصره، على اعتبار أن نخبة مقاتليه صمدوا أمام قوات التحالف بطيرانها ومدرعاتها، و45 ألف مقاتل، مدة 8 أشهر من المعارك المتواصلة. وهو أمر يمكن استخدامه في عمليات التجنيد المستقبلية.

قادة التنظيم الذين خططوا لكل هذا لم يكن بتصورهم أن هذه الخيارات في مثل هذه الظروف ستشقّ الصف بين متقبّل لهذه القرارات ورافضٍ لها. فضّل مئات العناصر أن يسلموا أنفسهم لقسد، أو الخروج من الباغوز هرباً. تمكن، قسم من الذين رفضوا خطة التنظيم في الباغوز، من الوصول إلى إدلب متخفين في صهاريج النفط، بعد دفع مبالغ طائلة لقياديين من قسد.

هرب قادة الصف الأول من الباغوز نحو العراق في محيط مدينة القائم، بالقرب من جيوب التنظيم في صحراء الأنبار الغربية، وكان خيار العراق هو الوحيد لأن الميليشيات الإيرانية كانت تملأ الضفة الغربية لنهر الفرات، تحسباً لهروب العناصر من الباغوز نحو بادية البوكمال القريبة.

في ظهوره الأخير، أعلن البغدادي انتهاء معركة الباغوز، ومقتل العديد من ولاة التنظيم في المعركة. توعد البغدادي في هذا الفيديو بالثأر لعناصر التنظيم الذين قتلوا، واستمرار التنظيم في قتاله ضد أعدائه.

الشكل الجديد للتنظيم.. سقوط عامل الجغرافيا

يبدو أن الوقت الذي كسبه التنظيم خلال المعارك من هجين وصولاً إلى الباغوز، هو لصالح خطة أكبر، عبر منح مجموعاته –البالغ عددها بالآلاف- المنتشرة في عمق البادية السورية في مثلث (السخنة – الميادين – معدان)، الفرصة للتجمع. انطلاقاً من هذه الجيوب يستطيع عناصر التنظيم الوصول إلى بادية السويداء الشرقية، وبادية البوكمال الغربية، وبادية الميادين، وبادية السلمية شمال شرق حماة، وشنّ غارات مباغتة على أرتال ودوريات الميليشيات الإيرانية التي تنتشر على طول الضفة الغربية لنهر الفرات من بادية البوكمال وحتى مدينة الميادين.

اتخذ التنظيم مثلث السخنة – الميادين – معدان لأنه يجاور قوات النظام، كونها عدواً أسهل من الميليشيات الشيعية، ومع ذلك بقي له جيوب صغيرة في مثلث السخنة – البوكمال – الزكف، وهي المنطقة الملاصقة لصحراء الأنبار الغربية.

وكان التنظيم قد أولى اهتماماً بالبادية السورية خاصة منذ 2015، معتبراً إياها باحة خلفية لمعظم المحافظات السورية، وقد وصلت مجموعاته عامي 2015 و2016 إلى التنف شرقي حمص والقلمون شمال دمشق، والسعن شمال حماة، وخلق علاقة جيدة مع البدو في المنطقة، كما ضمّ قسماً منهم إليه، كمراقبين لهذه الصحراء، التي لا يمكن السيطرة عليها بشكل محكم على الإطلاق.

ومن المؤكد أن منطقة بهذه الأهمية للتنظيم، ستكون مجهّزة بعدد من المخازن التي تحتوي على أسلحة متوسطة وثقيلة وذخائر متنوعة، حيث يمكن أن تكون منطلق لعمليات التنظيم العسكرية، أو ملجأ يمكن استخدامه في حالة الهزيمة، فهى صحراء لا يمكن السيطرة عليها بسهولة.

التنظيم تلقى درساً كافياً ليقتنع أن الطريقة التي اعتمدها في السيطرة والحكم، وإعلان دولة ذات جغرافيا وأسس تنظيمية، لا يمكن أن يستمر. ولذلك ستكون الصحراء خياراً مناسباً حالياً، الصحراء التي من الممكن أن يتحرك منها عناصر التنظيم إلى التجمعات المدنية المحيطة، وشنّ عمليات عسكرية خاطفة. حيث أن خلايا التنظيم المتواجدة في مناطق سيطرة قسد، والتي تشن عمليات تفجيرات واغتيالات، هي غالباً تعمل بشكل منفصل عن القيادة المركزية للتنظيم. وقد نفّذ طيران التحالف العشرات من عمليات الإنزال للقبض على هذه الخلايا، فبالتالي ستكون حظوظهم في الاستمرار قليلة نسبياً.

رغم الهزيمة الحالية للتنظيم وانتهاء شكله القديم، فإن المظالم الرئيسية التي أدت إلى ظهوره ما تزال موجودة: تدخل الدول الأجنبية، وعدم وجود الرغبة في اسقاط نظام الأسد في وقت مبكّر. بالإضافة إلى تنامي النفوذ الإيراني الشيعي على حساب السنة. الولايات المتحدة ستنسحب من المنطقة تاركة ورائها تبعات فشل استراتيجيتها في المنطقة، الاستراتيجية التي خلقت للتنظيم ظروفاً مثالية للنهوض عام 2014، وسيكون الانسحاب الأمريكي – في حال تم فعلاً- عاملاً كبيراً لعودة التنظيم من جديد. سوف يستغل التنظيم حالة الفوضى والغموض حول الجهة الدولية التي ستملأ الفراغ الذي ستتركه الولايات المتحدة. إن ضعف القدرات التقنية والعسكرية للدول المرشحة لملأ هذا الفراغ من المتوقع أن يخلق مزيداً من الفوضى والغموض.

عبد الله الموسى: باحث ومحلل عسكري، يعمل حالياً مديراً في مركز هوز للتطوير المجتمع، وعمل كمسئول ميداني للعديد من المنظمات الدولية في سوريا.